

التغيرات المناخية والموارد الطبيعية وأثرها على بنية المجتمع الواحي.

أي جواب لمغرب الغد؟

أوقى عمر

تقديم:

تجدد الإشارة إلى أن المجالات القروية بالمجتمع المغربي كانت على مر التاريخ قاطرة للتنمية وركيزة من ركائز الاقتصاد المغربي، نظرا لوظيفتها الفلاحية والزراعية التي وإن كانت ببساطتها، إلا أن ما تدره من مدخول ورأسمال على الأسر القروية جعلها مزارا اقتصاديا يقصده العديد من علماء الاقتصاد ومسؤولي القطاع الفلاحي والزراعي وقطاع البيئة والتنمية...بغية محاولة فهم وتفسير فلسفة اشتغال المجالات الروية، وما تعانيه من تصدعات وأزمات خاصة الجفاف وشح الموارد المائية، إلى جانب محاولتهم تحليل وفهم ما جعل من العالم القروي مجالا رائدا اقتصاديا واجتماعيا، ومثبنا داخل المخططات السوسيو-اقتصادية و البيئية والاجتماعية للدولة المغربية.

كل ذلك جعل كثير من الباحثين من مختلف تخصصاتهم يكرسون مجهوداتهم العلمية والبحثية حول القرية المغربية محاولين بذلك استخلاص نتائج علمية تمكنهم من فهم وتفسير واقع القرية الاقتصادية والاجتماعي والثقافي والسياسي...فأصبح بذلك الاهتمام العلمي بالقرى طاغيا على الحقول العلمية بالجامعات المغربية ومنتديات وأندية وجمعيات، والعديد من المؤسسات التي أدركت الدور المركزي الذي تقوم به القطاعات القروية بالمجتمع المغربي.

إلا أن ما نسجله اليوم بخصوص الأبحاث والدراسات العلمية بالمغرب إغفالها للوائح المغربية التي لا تقل أهمية عن القرى، والتي لم تسلم هي الأخرى من التحولات والتغيرات المناخية والطبيعية، التي مست بنية الواحة الاجتماعية والاقتصادية وكذا الثقافية والسياسية. من ثم كان لزاما علينا تسليط الضوء على الواحة التي تعتبر جزء لا يتجزأ من البنية الكلية للمجتمع المغربي.

ولكي لا نكون بمنطق التعسف، سنركز في هذه الورقة على واحة فركلة التي ننتمي إليها ونلاحظ ما يحدث بها من تغيرات وتحولات باستمرار، ولكوننا باحثين في مجال السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا، فمقاربتنا لموضوع التغيرات المناخية الطبيعية، كانت مقارنة سوسيو-أنثروبولوجيا من خلال محاولتنا فهم وتفسير أثر التحولات والتغيرات المناخية والطبيعية على الحياة الاجتماعية والثقافية بواحة فركلة، بغية نفض الغبار على واقع التنمية بالواحة، والخروج بنتائج يمكنها دعم المنظور التنموي الجديد الذي تطمح سياسات واستراتيجيات الدولة المغربية أجرأته جوابا على سؤال مغرب الغد؟

كما تهدف الدراسة من جهة أخرى إثراء البحث العلمي حول الواحة التي عانت ولا زالت تعاني الأمرين؛ مرارة الظروف الطبيعية القاسية والنموذج التنموي المهترئ، و مرارة شح الأبحاث والدراسات العلمية.

مدخل منهجي:

إن طبيعة الإشكال الذي يتمحور حول أثر التغيرات المناخية والطبيعية على البنية الاجتماعية والثقافية بواحة فركلة، فرض علينا اعتماد المقاربة المزدوجة بين السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا، باعتبارها مقاربة قادرة على كشف العلاقة إنسان/مجال وتأثيرها على طبيعة العلاقات الاجتماعية في مستوياتها المتعددة والتنشئة الاجتماعية التي تمكن الفرد من أداء دوره الوظيفي في المجتمع والحفاض على نسق البنية الاجتماعية الثقافية.

فالواحة رغم بساطتها -التي تدخل في الأحكام المسبقة- إلا أنها ذات مضمون أكثر تعقيدا، نظرا لطبيعتها المزدوج بين ما هو تقليدي وحدائي، عرفي وقانوني، قبلي ومخزني...وهو ما مكنتنا المقاربة الأنثروبولوجيا من فهمه وتفسيره خاصة لما يتعلق الأمر بالتركيبية الأتنية والطقوس والمعتقدات والممارسات اليومية. إلا أن انفتاحنا على أنماط تنظيم العلاقات والروابط الاجتماعية جعلنا نقف عنق أدبيات التحليل السوسيولوجي لكي ندقق في الفهم والتحليل.

فالمزج بين تخصصي السوسولوجيا والأنثروبولوجيا قدم لنا صورة واضحة المعالم حول إشكال البحث، ودعتنا هذه المقاربة إلى اختيار منهجيات عديدة أبرز الملاحظة التي مكنتنا من رصد وملاحظة مجال البحث بشكل دقيق رغم ما نعيشه اليوم في ظل الأزمة الوبائية العالمية من تضيق خناق إجراء الملاحظة المكثفة داخل مجال البحث، والذي جعلنا نركز بشكل كبير على المنهج التحليلي لمضمون العديد من الوثائق والأبحاث المرتبطة بواحة فركلة و واحات الجنوب الشرقي المغربي بشكل عام... وغيرها من التقنيات التي تنتمي إلى حقل السوسولوجيا والأنثروبولوجيا القروية/ الواحية.

واحة فركلة: تهديد التغيرات المناخية وأزمة المجال التنموي.

إن ما تعاني منه الواحة اليوم لا يمكننا فصله عن السياق المحلي والدولي والعالمي أساسا، فالتحولات المناخية يمكن أن تكون امتداد لجشع استغلال سكان الواحة للفرشة المائية، وذلك من خلال استغلالها المفرط والغير معقلن لمياه الآبار التي تتواجد اليوم بأعداد متضاعفة بالواحة، إلى جانب استمرارية المصانع في تلوّث الغلاف الجوي. كل ذلك أثر سلبا على الواحة التي تعاني اليوم ويلات الجفاف وحرارة المناخ الذي سبب في تبخر كميا كبيرة من المياه، ما أدى إلى تراجع مكانتها الوظيفية اقتصاديا من جهة، وتدهور النظم الفلاحية والزراعية الذي كان نتيجة لعزوف الشباب عن الفلاحة كظاهرة جديدة تستوجب البحث والدراسة.

أدت بذلك التغيرات المناخية والطبيعية، وارتفاع النمو الديموغرافي إلى تبني الجيل الجديد هجرة الفلاحة والزراعة التي كانت بالأمس القريب مصدرا تنمويا وافد من روافد التضامن الجماعي بالواحة، نحو ما تمليه عليهم الحداثة وأدبيات العالم الجديد من فردانية وعصرنة. وهو ما أدى إلى تصدع نمط الحياة بالواحة، فلم تعد القبيلة والجماعة والعرف... تؤدي وظيفتها في التنشئة الاجتماعية، بل انسحبت وحلت محلها مؤسسات أخرى كالمدرسة التي شكلت -على مر تاريخ الواحة- منعطفا أساسيا ساهم في قلب موازن الواحة، فاضمحل بذلك ما تبقى من الارث الثقافي والاجتماعي والفلاحي بالواحة.

هذا الانكماش الثقافي يعتبر المدخل الأساسي إن أردنا فهم واقع الواحة، فما توصلت إليه الأبحاث والدراسات بخصوص أزمة الواحة بفعل الجفاف وما له من آثار على اقتصاد الواحة، كان منطلقا لنا للبحث في آثار تلك التغيرات على واقع التنشئة الاجتماعية التي تعتبر قنطرة عبور لفهم أزمة التنمية بالواحة. لعل عودتنا إلى سؤال التنمية في ظل ما تعيشه الواحة، جعلنا نركز بالأساس على عنصر الماء الذي لا يعتبر فقط سائل طبيعي، بل يتجاوز ذلك ليقترح عالم الميتافيزيقا ويحتل مكانة فيه من خلال ما نسجه الانسان الواحي من معتقدات وممارسات وطقوس حول الماء، فأى خلل يمس هذا الرأس مال الأزرق يشكل خطرا على البنية الكلية للواحة، وهو ما يفسر لنا خلل النموذج التنموي بهذه المجتمعات لأن ما كان عاملا للاستقرار والتوازن، يشكل اليوم تهديدا وخلخلة لهذا الاستقرار بفعل الجفاف وشح الفرشة المائية، فلا يمكننا الحديث عن التنمية دون العودة إلى فهم العلاقة بين الطبيعي والاجتماعي من جهة، كما لا يمكننا فهم السلوك الاجتماعي لأي مجال حضريا كان أم قرويا أم واحيا، إلا إذا ربطنا تلك السلوكيات الاجتماعية بمرجعها الثقافي الذي أنتجتها، حيث تبقى الخصوصية الثقافية الاستثنائية للواحات موردا خصبا للأفكار.

لقد ساهمت التغيرات المناخية والطبيعية في تمزيق بنية الواحة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، فلم تعد تحن لماضيها التقليدي الذي مكنها من تطوير تقنيات وظفها الواحيون كسلاح أمام قساوة الظروف المناخية كتقنية الخطارة التي لخصت جل أشكال التضامن والتعاون الجماعي، فالخطارة هي نبض الواحة، وبدونها تغيب القيمة الاقتصادية والاجتماعية والوجودية للواحة عامة.

خلاصة

عموما، يمكننا القوا أن ما تعيشه الواحة اليوم والعديد من المجالات القروية من تدهور تنموي، راجع إلى توالي فترات الجفاف وقلة التساقطات والاستغلال اللاعقلاني للمياه الباطنية، وهو ما يستدعي العودة إلى أدبيات سوسولوجيا اليومي والأنثروبولوجيا التأويلية التي تعلمنا فهم الأنا الجمعاء وحصر النفس ثقافيا⁴.

فالواحة اليوم تعاني من فراغ ثقافي وهوياتي، وعزوف إيكولوجي الذي أصبحت على إثره القبيلة دال بدون مدلول، واهترأت قيم الواحة الثقافية والتنموية. فلا يمكن للواحة أن تنمي ذاتها وأن تخرج من هذه الأزمة، إلا إذا تصالحت مع ذاتها، كمفتاح وبوابة رئيسية للمضي نحو التنمية عبر العادات والتقاليد والاعراف والثقافة المحلية التي ينبغي لها أن تكون رافعة للتنمية بواحات الجنوب الشرقي المغربي.

فالعودة إلى الذات والذاكرة الجماعية، أرى أنها عودة ضرورية ويمكن أن تكون رافعة للتنمية، و ينبغي استغلالها لبناء مخططات واستراتيجيات جديدة يمكنها ان تشفي غليل الأزمة التنموية الناتجة عن التغيرات المناخية والطبيعية بالواحة كما سبق الذكر.

ومن بين اقتراحاتنا حول المضي نحو بناء النموذج التنموي الجديد للتفكير في مغرب الغد؟ ما يلي:

صياغة بيداغوجية تعليمية تضع صلب أعينها الموروث الثقافي، وتشجع البحث الأكاديمي حول الواحات المغربية التي تعتبر رافدا من روافد الارث الثقافي المغربي.

والتفكير في طرق ناجعة تقنن استغلال وتدبير المياه الجوفية التي استنزفها جشع الفردانية المطلقة.

المراجع المعتمدة:

- ✓ أحمد الخطابي، (العنف الايكولوجي والصراعات الاجتماعية؛ دراسة سوسيولوجيا للآثار المتعددة لزراعة البطيخ الاحمر بواحة درعة بالجنوب الشرقي للمغرب)، مجلة المجال الجغرافي والمجتمع المغربي، العدد 27، 2019.
- ✓ محمد عبده محجوب، الاتجاه السوسيوأنثروبولوجي في دراسة المجتمع، وكالة المطبوعات 27 شارع فهد السالم، الكويت.
- ✓ امجد مهديان، الماء والتنظيم الاجتماعي، دراسة سوسيولوجيا لأشكال التدبير الاجتماعي للسقي بواحة تودغي، طباعة ونشر سوس-أكادير، 2012.
- ✓ إياهيم حمداوي وآخرون، الواحات المغربية: المجال والمجتمع والثقافة، مطبعة الرباط نت، 2019.
- ✓ قسطنطين بن محمد، واحة غريس والاستعمار: آليات التحول وأشكال المقاومة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر بالرباط، 2018.